الباب الثانى
المؤلف

obeikandl.com

حكى ابن الأنبارى[1] عن يونس بن حبيب أنه قال: " دخلت على أبى عمرو الشيبانى وبين يديه قمطر فيه أمناء من الكتب يسيرة، فقلت له: أيها الشيخ، هذا جميع علمك؟ فتبسم إلى وقال: هذا من صندوق كبير".

تدلنا هذه الحكاية – إن صحت – أن يونس كان لايتشدد فى أمر حفظ العلم فى الصدور شأن العصر الذى عاش فيه وشهد انتقال العرب من الاكتفاء بالحفظ إلى الاعتماد على التدوين، وأنه كان يتسمح فى تقييد العلم فى مدونات. ولذلك لا نعجب أن ينسبوا إليه بعض الكتب.

ولكن ما عدد هذه الكتب التى دونها ابن حبيب، وخلفها لمن جاء بعده من أجيال؟

أعتقد أن من يعتمد على ماذكرته المراجع فيصرح أنه أصدر أربعة كتب، لايبعد عن الصواب. أما من يذكر أنها ستة، فهو ينظر إلى ظاهر الاحصاء ولايستبطنه.

فقد نسب القدماء إلى الرجل كتاب "معانى القرآن". ثم صرح ابن النديم وياقوت[2] (نقلا عنه فى الغالب) أنه له كتابان بهذا الاسم، واحد كبير، وآخر صغير.

وتكرر الأمر فى كتاب آخر له. إذ اكتفى ياقوت[3] بأن قال له كتاب النوادر. وأعلن ابن خلكان والقفطى[4] أن له كتاب النوادر الصغير، ولم يذكرا سببا

---

(١) النزهة ٦٣.

(٢) الفهرست ٣٤، ٤٢. معجم البلدان ٢٠ : ٦٧.

(٣) ٢٠ : ٦٧.

(٤) الوفيات ٢: ٤١٦. إنباه الرواة ٢ : ٣٦٧.

لهذا الوصف. أما ابن النديم[1] فكان صريحا أن الرجل كان له النوادر الكبير، والنوادر الصغير.

ولما كانت هذه الكتب لم تقع بأيدى العلماء بعد، كان لابد من الاعتماد على الظنون فيها. وظنى أن الكتاب الصغير والكبير – من المعانى أو النوادر – إنما هو كتاب واحد، بدأ الرجل فى إملائه فكان صغيرا ، ولكن كان يعود إليه بين الفينة والفينة ويضيف إليه ثم يعيد إملاءه فى حلقته. فهما إذن نسختان من كتاب واحد: أولاهما فى الزمن صغيرة، وأخيرتهما تحتوى على الأولى كلها ثم تضيف إليها مادة جديدة. وأمثل لذلك بكتابى الإبل اللذين طبعا للأصمعى، ويؤيدان هذا الظن كل التأييد.

---

(١) ٤٢.

الفصل الأول

الكتب المعروفة

كتاب النوادر

أهم كتاب من كتب يونس، لدينا معلومات عنه، ومقتبسات منه، هو "النوادر". فقد أخذه منه تلميذه محمد بن سلام، وأصدر نسخة بقيت إلى عصر متأخر. ثم فقدت غير مختصر اختاره منها بعض العلماء، فوقع فى يد السيوطى، فاحتفظ به أو بجملة صالحة منه فى مزهره. قال السيوطى[1]: "وفى النوادر ليونس، رواية محمد بن سلام الجمحى عنه – وهذا الكتاب لم أقف عليه إلا أنى وقفت على منتقى منه بخط الشيخ تاج الدين بن مكتوم النحوى، وقال: إنه كتاب كثير الفائدة قليل الوجود..".

وأرجح أن النوادر هو الكتاب الذى أفاد منه الصغانى فى كتابه "ماتفرد به بعض أئمةاللغة"، المحفوظة مخطوطته فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٤١٨ لغة[2]. واغترف منه مادة أفرد لها القسم الثانى من الكتاب. فان صح هذا ، كان لنا الحق أن نضيف إلى ما سبق على لفظ التوقة: "كذا وجدته محققا في نسخة قُرئت على ابن دريد، وعليها خطه؛ وعلى السيرافى، وعليها خطه".

ونستطيع أن نطمئن إلى هذا الترجيح حين نعرف أن أبا سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى كان مهتما بالنوادر حتى ألف نقدا عليها. وقد رد أبو محمد الحسن بن

---

(١) المزهر ٢ : ٢٨٩.

(٢) طبع كتاب الصغانى فى بغداد فى ١٩٨٣ باسم "الشوارد فى اللغة، بتحقيق عدنان عبد الرحمن الدورى.

محمد النسابة التميمى التاهرتى على هذا النقد.

وعلى هذا الأساس أستطيع أن أضع ما بين يدى من أخبار فى ثلاثة أصناف: صنف صرح آخذوه بأنهم استعاروه من النوادر، وهو ما وضعه السيوطى فى مزهره؛ وصنف أرجح أنه مأخوذ من النوادر أيضا، وهو ما وضعه الصغانى فى كتابه؛ وصنف أظن أنه من النوادر لأن نهجه قريب من نهج الصنفين الأولين غير أن آخذيه لا ينسبونه إلى كتاب من كتب يونس.

ومن الخطأ أن نعتمد اعتمادا تاما على مابقى من مقتبسات فى استنباط منهج الكتاب، والموضوعات التى عنى بها، والظواهر التى غلبت عليه، وخاصة من النواحى السلبية. فإنها مثلا تخلو من الشعر، ومن نسبة أى قول إلى أحد من شيوخ يونس. ولكننا حين نذكر أن ما أورده السيوطى مأخوذ من منتقى، وما أورده الصغانى مختار، يميل بنا الرأى إلى أن ذلك ربما كان من المختصرين، وأن الكتاب الأصيل ربما كان مختلفا عن ذلك.

ومما يطمئننا إلى ذلك وجود كلمتين ينسبهما الرجل إلى أحد أساتذته. قيل فى المزهر[1]: "قال يونس فى نوادره: قال أبو عمرو بن العلاء: لا يكون الشواظ إلا من النار والنحاس معا".

وقيل[2]: "قال فى قوله تعالى: ﴿فرهن مقبوضة﴾ قال أبو عمرو بن العلاء: الرهن والرهان عربيتان، والرهن فى الرهن أكثر، والرهان فى الخيل أكثر".

ولكننا إذا كنا لا نستطيع أن نعتمد على هذه المقتبسات فى الظواهر السلبية،

---

(١) ١ : ٤٥٣.

(٢) ٢ : ٢٨٩.

فاننا نستطيع ذلك فى الايجابية، مع الاحتراس فى قدر انتشارها فى الكتاب.

وأول ما يتجلى للناظر فى المزهر عناية المؤلف باللهجات العربية، وخاصة اثنتين منها. فالفصل الذى أورده السيوطى هو فى الحقيقة قائمة طويلة بما بين لهجتى قريش وتميم من خلاف فى بعض الكلمات، وإليك ما أورده السيوطى دون تدخل منا، فى غير التنظيم على شكل قائمة. قال[1] : "قال يونس فى نوادره:

أهل الحجاز يقولون: خمس عشْرة – خفيفة لا يحركون الشين. وتميم تثقل وتكسر الشين، ومنهم من يفتحها.

أهل الحجاز يبطِش.	وتميم يبطُش.
أهل الحجاز أيهات.	وتميم هيهات.
أهل الحجاز مِرْية.	وتميم مُرْية.
أهل الحجاز الحصاد.	وتميم الحصاد
أهل الحجاز الحج.	وتميم الحِج.. " [2]

ونجد هذا الاهتمام باللهجات القبلية واضحا فى فصول الصغانى أيضا. فكثيرا ما أورد اللفظ واكتفى فى التعليق عليه بأنه لهجة، دون أن ينسبها إلى واحدة من القبائل، مثل قوله: "مُتى: لغة فى متى فى الاستفهام والشرط دون الظرف .. يجِن عليه الليل: لغة فى يجُن .. أَفْوق سهمه: لغة فى أفاقه وأَوْفقه ..".

وصرح فى أربع مرات بأصحاب هذه اللهجات، فكانت مرة لتميم، مثل قوله: "يسمِت فى الهداية: لغة تميم فى يسمُت" ؛وثانية لأحد بطون تميم، مثل قوله:

---

(١) المزهر ٢ : ٢٧٥ – ٦ .

(٢) يختلف ضبط هذه الألفاظ فى اللهجتين.

"قال رجل من بنى يربوع فى قولهم: لا يعرف هِرا من بِر، هو من قولهم: أبررت شائى: أى أصدرتها، وهَرْرت بها: أى أوردتها"؛ وثالثة لغير تميم، مثل قوله: "أهل العالية يقولون: ما لقيته منذ اليوم، وأهل نجد يقولون: مذ اليوم؛ والرابعة لهذيل مثل قوله: "أجويت القدر، وهذيل تقول: أجييتها أى غلفتها".

وإذا اعتمدنا على قائمة المزهر نستطيع أن نصنف الظواهر اللغوية التى عنى بها يونس ورصدها فى كتابه على النحو التالى:

١- اختلاف القبائل فى ضبط الكلمات، وهو أكثر الأنواع ورودا فى القائمة، مثل قوله: "أهل الحجاز رَضوان وتميم رُضوان .. أهل الحجاز: على رغمه ، وتميم: على رغمه .. أهل الحجاز: مزرعة ومقبرة ومشرعة، وتميم: مزرعة ومقبرة ومشرعة".

ونجد هذه الظاهرة موجودة بمثل هذه الكثرة فى فصل الصغانى، حتى إننا نستطيع أن نقسمها بدورها إلى أنواع جزئية يندرج تحتها أمثلة عدة. فهناك الاختلاف فى ضبط الأفعال مثل قوله: "ينثِر ما فى الجراب: مثل ينثُر .. يخطِر ببالى: لغة فى يخطُر .. عَلُن الأمر. لغة فى عَلَن وعَلِن". والاختلاف فى ضبط الأسماء، مثل قوله: "فلان من سِفِلة الناس: لغة فى السَّفِلة والسِّفْلة .. ومصدر ألا - أى قصَّر - أَلْو وأُلوّ، وحَذارك منه، وحذارِك منه: بمعنى حذار منه" . والاختلاف فى ضبط المركبات، مثل قوله: "لَعَمَرى - بالتحريك : لغة فى لعمْرى".

وكذا الأمر فى المقتبسات المهملة التى لا يبين آخذها عن أى واحد من كتب يونس أخذها، مثال ذلك[1]: "روى أبو عبيدة عن يونس أن من العرب من يقول:

---

(١) ابن الأنبارى: شرح القصائد السبع الطوال ٢٥٠.

هذا فِم، ورأيت فما، وأخرجه من فمه، فيلزم الفاء الكسر فى الرفع والنصب والخفض"، وقول السيوطى[1] : "قال يونس: غرفت غَرْفة واحدة، وفى الإناء غُرْفة، ففرق بينهما، وكذلك قال فى الحَسوة والحُسوة".

٢- الإعلال والإبدال، وأورد السيوطى فى قائمته ثلاثة أمثلة لإعلال كل من الواو والياء. فقد تتبادل الواو والياء مكانيهما، مثل قوله: "أهل الحجاز: قلنسية، وتميم : قلنسوة .. أهل الحجاز : القِنْية، وتميم: القُنوة" . وتبدل الواء تاء، مثل قوله: "أهل الحجاز: تخذت ووخذت، وتميم اتخذت"، وتبدل الياء ألفا، مثل قوله: "أهل الحجاز: القير، وتميم: القار". وتقترب الهمزة من حروف العلة فى الابدال، وفى القائمة مثال أبدلت فيه هاء، قيل: "تميم: هيهات، وأهل الحجاز: أيهات".

وأمثلة الإعلال والابدال كثيرة ومتنوعة فى فصول الصغانى. فلا تقتصر على حروف العلة والهمزة بل تتعداها إلى الميم ولكن أكثر الأمثلة كلمات تحتوى على الهمزة أوالواو، مثل قوله: "كان من الأمر ذَيْت وذيتِ، وذَيَّة وذية، وذَيّاء وذياء: لغات فى ذيتَ وذيتُ" وقوله : "أجَّ : لغة فى وج " وقوله "ذرا فوه يذرو، وذرى يذرِى، وذرا يذرا: أى سقط".

ويليهما فى الكثرة تبادل الميم والنون مكانيهما، مثل قوله : "الامتطال: الانتطال.. هو شراب بأَمقُع: مثل بأنقع". ثم تتساوى بقية الحروف التى يقع فيها إبدال، مثل قوله: "أتَّى: بمعنى حتى وعتى .. ادَّمل من مرضه : أى اندمل".

وتبين من النظر فى الأمثلة السابقة وغيرها أن بعض أنواع الإبدال التى ذكرها المؤلف غير قياسى، وبعضها الآخر قياسى كان يونس فى غنى عن ذكره،

---

(١) المزهر ٢: ٢٩٩.

وخاصة ما اتصل بالهمزة وتخفيفها وإبدالها. مثال ذلك ما جاء فى قائمة السيوطى: "أهل الحجاز: جونة، بلا همز، وتميم: جؤنة، بالهمز" وما جاء فى فصل الصغانى: "الإعاء والإكاء والإقاء : لغات فى الوِعاء والوكاء والوقاء".

٣- الاختلاف فى صيغ الكلمات، سواء كانت أفعالا أو أسماء. وأمثلته فى قائمة السيوطى: "أهل الحجاز: سل ربك، وتميم: اسأل .. أهل الحجاز : هو الذى ينقد الدراهم، وتميم: ينتقد .. أهل الحجاز: الكراهة، وتميم : الكراهية". وأمثلته فى فصل الصغانى: "أَنْجمت السنُّ: مثل نَجمت. استنوى: ألقَى النوى، كنَوى ونَوَّى وأَنوى .. أُجنِب الرجل: مثل أَجْنب وجَنُب".

ويستحق الذكر الخاص من هذا الاختلاف ما وقع منه فى المصادر والجموع، إذ يبدو أن القبائل وقع بينها اختلاف كبير فى صيغهما لفت أنظار العلماء فأفردوا الكتب لكل من النوعين. أما يونس فلم يذكر أحد أنه دون كتابا خاصا بأيهما، ولكن المقتبسات الباقية تدل على أنه وجه إليهما عناية عظيمة، وخاصة إلى الجموع. وقد ذكرت آنفا ما قال عن الرهن، وأضيف إليه هنا بعض ما جاء فى فصل الصغانى، قال: "الوِهْدان: الوهاد .. جميع الجَذَع جُذاع وأجذاع وجُذْعان مثل جِذاع وجِذْعان.. اللُّؤْمان: اللئام". بل وصل الأمر إلى أن نسبت بعض الجموع إليه مثل آخاء[1] ، وإلى أن تنبه إلى القاعدة العامة، مثل قوله: "ماكان جمع فعيل من المضاعف يقال فيه فعل وفعل، مثل قليل وقلل وقلل".

وأمثل لعنايته بالمصادر ما جاء عند الصغانى: "مصدر شعرت بالشئ شِعْرة وشَعْرة وشعور، كالشِّعْر والشَّعْرى والمشعور والمشعورة .. قدمت البصرة قِدْمانا: أى قدوما".

---

(١) سر الصناعة ١ : ١٦٦.

٤- الحذف، بأن يسقط من الكلمة فى إحدى اللغات حرف أو أكثر، سواء كانت الكلمتان: الناقصة والتامة تعودان إلى أصل واحد اتفق عليه النحاة، أو تعودان إلى أصلين مختلفين أو أصول اختلف فيها النحاة. مثال ذلك فى قائمة السيوطى: "أهل الحجاز :ليلة ضَحْيانة، وتميم: ليلة إضْحيانة. أهل الحجاز: ما رأيته منذ يومين، ومنذ يومان، وتميم: مذ يومين ويومان، فيتفق أهل الحجاز وتميم على الإعراب، ويختلفون فى مذ ومنذ: فيجعلها أهل الحجاز بالنون وتميم بلا نون". وأمثلته فى مقتبسات الصغانى : "فلان مُضْلع لهذا الأمر : أى مضطلع ، وكذلك مُطَّلع.. السُّوذق والسُّوذَنيق: لغتان فى السَّوْذق والسوذنيق. المَضْرح: المضرحىّ، كالقَطام للقطامىّ".

٥- التذكير والتأنيث. وأورد له السيوطى مثالا واحدا، قال: "أهل الحجاز: ليست له همة إلا الباطل، وتميم: ليس له همة إلا الباطل". وأورد الصغانى من أمثلته قوله: "ليلة مُقْمر: مثل مقمرة. يقال: كثرت مالُ فلان، يؤنثون المال كما أنثوا القوم، قال الله تعالى: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ .. امرأة حاصِنة: مثل حاصن". وأورد ابن سلام[1] : "قال يونس: يقولون: حية ذكر، ونعامة ذكر، وشاة ذكر، وبطة ذكر؛ ولم أسمعه منه".

٦- الصيغ الشاذة فى القياس. فالصرفيون لايجيزون الاشتقاق من أسماء الأجناس، ويحكمون على ما جاء من ذلك بالشذوذ. ويبدو أن يونس عنى بأمثال هذه الصيغ الشاذة، إذ أورد السيوطى له مثالا منها، قال[2] : "فى نوادر يونس:

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٤٣٤.

(٢) المزهر : ٢ : ٢٧٥.

فاكه من الفاكهة، مثل لابن وتامر".

وهناك ظواهر لغوية أخرى تتجلى فى الفصل الذى اقتبسه الصغانى من يونس، والمقتبسات المهملة الأخرى عنه، مثل الصيغ الغريبة، والمثنيات، والمركبات ذوات المعنى الغريب، والألفاظ التى قد تتداخل معانيها، والألفاظ المماتة، واختلاف الإعراب. ولكننى لا أتحدث عنها هنا إذ لم أجد نصا صريحا يقطع بكونها من كتاب النوادر.

وأحب أن أشير – قبل أن أخلص من الحديث عن النوادر – إلى أن يونس تعرض فيه لبعض الألفاظ القرآنية، كما رأينا فى الرهن، وكما نرى فى قول السيوطى[1]: "قال يونس فى قوله تعالى: ﴿ويهيئ لكم من أمركم مرفقا﴾: الذى اختاره المِرْفق فى الأمر، والمرفق فى اليد". ويبدو أنه اتخذ من بعض الآيات شواهد على أقواله، كما رأينا فى حديثه عن التذكير والتأنيث.

وأشير إلى أن يونس من رواد المؤلفين فى النوادر، إذ لم يسبقه غير أستاذه أبى عمرو بن العلاء ثم ألف فيها من معاصريه القاسم بن معن الكوفى، وأبو مالك عمرو بن كركرة، والكسائى، وأبو شبل العقيلى، وأبو المضرحى. ولهذا السبب كانت نوادره أحد الينابيع التى اغترف منها من جاء بعده من اللغويين، أمثال ابن دريد وابن قتيبة وابن سيده[2].

---

(١) المزهر : ٢ : ٢٨٩.

(٢) حسين نصار: المعجم العربى ١٢٣ – ١٤٥.

كتاب الأمثال

ذكر المؤرخون أن يونس بن حبيب ألف كتابا فى الأمثال، بهذا العنوان. وإذا كان الحظ الحسن قد منحنا مختصرا أو منتقى من كتاب النوادر، فإنه لم يفعل ذلك فى هذا الكتاب. ولكنه لم يتخل عنا كل التخلى عنا.

فقد راجعت ما بين أيدينا من كتب الأمثال فلم أعثر على نص صريح مأخوذ منه، حتى الميدانى الذى حاول الاطلاع على المؤلفات السابقة عليه لم يصرح بالرجوع إليه حين قال[1] : "فطالعت من كتب الأئمة الأعلام ما امتد فى تقصيه نفس الأيام، مثل كتاب أبى عبيدة وأبى عبيد والأصمعى وأبى زيد وأبى عمرو وأبى فيد، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل به سلمة، حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا..". ولعل أقرب الأقوال إلى التصريح ما جاء فى فصل المقال[2]: "أورد يونس هذا المثل"، وإن كان هذا القول لا يقطع بأنه أورده فى كتاب الأمثال، فلا زال الاحتمال بأن ذلك كان منه فى بعض كتبه الأخرى قائما.

وبالرغم من ذلك عثرت على عدد من الأمثال والأقوال المنسوبة إلى يونس فى مجمع الأمثال، وفصل المقال، وإصلاح المنطق، وغيرها. وعلى هذه المقتبسات أعتمد فى دراستى هذه، إذ أننى أرجح أن ما أورده الميدانى أخذه من "أمثال" يونس عن طريق أحد تلامذته الذين رجع إلى كتبهم. أضف إلى ذلك أن هذه المقتبسات تعطينا صورة تقريبية للأمثال التى عنى بها يونس، والنهج الذى اتبعه فى معاملتها.

---

(١) مجمع الأمثال ١ : ٧.

(٢) ٢٥٦.

ونستطيع أن نستنبط من هذه المقتبسات أن يونس عنى بعدة أنواع من الأمثال، ولم يقصر جهوده على واحد منها. وأكثر ما أخذه الميدانى منه أمثال اجتماعية تتناول العلاقات بين الأفراد، بل نستطيع أن نضيق المجال أكثر من ذلك ونصفها بالعائلية، إذ تعالج أمورا تكون بين الرجل وبنته، والمرأة وزوجها أو المتقدمين للزواج منها أو أبنائها أو قريباتها[1] . وأمثل لها بما جاء فى تفسير المثل (جف حجرك، وطاب نشرك، أكلت دهشا، وحطبت قمشا)، قال الميدانى[2]: "قال يونس ابن حبيب: كان من حديث هذين المثلين أن امرأة زارتها بنت أخيها وبنت أختها فأحسنت تزويرهما. فلما كان عند رجوعهما قالت لابنة أخيها: جف حجرك وطاب نشرك. فسرت الجارية بما قالت لها عمتها. وقالت لابنة أختها : أكلت دهشا وحطبت قمشا. فوجدت بذلك الصبية وشق عليها ما قالت لها خالتها. فانطلقت بنت الأخ إلى أمها مسرورة. فقالت لها أمها: ما قالت لك عمتك؟ فقالت: قالت لى خيرا ودعت لى. قالت: وكيف قالت لك ما قالت؟ قالت: قالت: جف حجرك وطاب نشرك. قالت : أى بنية، ما دعت لك بخير، ولكن دعت بأن لاتشمى ولدا أبدا فيبل حجرك ويغير نشرك. وانطلقت الأخرى إلى أمها. فقالت لها أمها: ما قالت لك خالتك؟ قالت: وما عسى أن تقول لى، دعت الله على! قالت: وكيف قالت لك ما قالت؟ قالت قالت: أكلت دهشا وحطبت قمشا. قالت: بل دعت الله لك يا بنية أن يكثر ولدك فينازعوك فى المال ويقمشوك حطبا".

ويتصل بهذه الأمثال العائلية أمثال أخرى قبلية، لاتقتصر على العلاقات فى داخل الأسرة الواحدة أو بين الأفراد بل تتسع فتتعلق بالعلاقة بين جماعة وأخرى. ولم

---

(١) مجمع الأمثال ١: ٥٧، ١٦٩، ١٨١، ٢٢٢، ٤٩١، ٤٩٧.

(٢) مجمع الأمثال ١: ١٨١.

أجد من هذا النوع غير مثل واحد هو (أسائر اليوم وقد زال الظهر) ، قال الميدانى[1]: "قال يونس: أصله أن قوما أُغير عليهم. فاستصرخوا بنى عمهم فأبطئوا عنهم حتى أُسروا وذُهب بهم. ثم جاءوا يسألون عنهم فقال لهم المسئول هذا القول. يضرب فى اليأس من الحاجة، يقول: أتطمع فيما بَعُد وقد تبين لك اليأس".

وقريب من هذه الأمثال الاجتماعية الأمثال التاريخية التى تسرد أخبارا كانت شائعة بين العرب يعدونها فى تاريخهم القديم. ولم أعثر من هذا النوع إلا على واحد هو (على أهلها تجنى براقش). قال الميدانى[2]: "روى يونس بن حبيب عن أبى عمرو بن العلاء قال: إن براقش امرأة كانت لبعض الملوك، فسافر الملك واستخلفها. وكان لهم موضع إذا فزعوا دخنوا فيه، فإذا أبصره الجند اجتمعوا. وأن جواريها عبثن ليلة فدخّن فجاء الجند. فلما اجتمعوا قال لها نصحاؤها: إنك إن رددتهم ولم تستعمليهم فى شىء، ودخنتهم مرة أخرى، لم يأتك منهم أحد. فأمرتهم فبنوا بناء دون دارها. فلما جاء الملك سأل عن البناء. فأخبروه بالقصة فقال: على أهلها تجنى براقش. فصارت مثلا".

وتلى الأمثال العادية [3] الأمثال الاجتماعية فى الكثرة. وأعنى بالأمثال العادية مالم يجروه على لسان أحد، وكانت عبارته المحكمة الموجزة ومضمونه الصادق سببا فى شيوعه. وأمثل له بالمثل (أضئ لى أقدح لك)، قال الميدانى[4]: "قال يونس بن حبيب: زعم بعض العرب أنه هزء، لأنه إذا قال: أضئ لى، كيف يقول:

---

(١) مجمع الأمثال ١: ٣٤٨، الزمخشرى، المستقصى ١ : ١٥٣.

(٢) مجمع الأمثال ١ : ٤٧٥.

(٣) مجمع الأمثال ١ : ١٠٨، ١٥١، ٤٣٤، ٢ : ١٣٠ فصل المقال ٩٨.

(٤) مجمع الأمثال ١ : ٤٣٤ . الزمخشرى : المستقصى ١ : ٢١٣.

أقدح لك، لأن القادر على القدح لا يتعرض لاضاءة غيره، كأنه يقول: واسِنى مع استغنائى عن ذلك. هذا كلامه".

وأخيرا هناك الأمثال المأخوذة من الحيوان: من عاداته، أو القصص والخرافات التى التفت حوله وشاعت بينهم[1]. ومثالها (إنها الابل بسلامتها) الذى قال الميدانى فى شرحه: "قال يونس: زعموا أن الضبع أخذت فصيلا رازما فى دار قوم قد ارتحلوا وخلوه. فجعلت تخليه للكلأ وتأتيه فتغاره إياه، حتى إذا امتلأ بطنه وسمن أتته لتستافه، فركضها ركضة دقم فاها. فعند ذلك قالت الضبع: إنها الابل بسلامتها. يضرب لمن تزدريه فأخلف ظنك".

وتوجد بعض الأقوال الشائعة، التى وجدتها فى بعض المراجع[2]، غير أننى لم أرها عند الميدانى، مثل قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: الحرب خدعة، وقولهم: لا دريت ولا أتليت. ولكننى لا أستطيع أن أقطع بل أن أرجح أنها من كتاب الأمثال، ولذلك لم أتعرض لها هنا.

ونستطيع أن نستجلى من بعض الأمثلة التى أوردتها وغيرها مما لم أورد بعض الخطوات التى سار عليها يونس فى معالجة الأمثال التى تحدث عنها. فنحن نراه فى بعض الأمثال صرح أنه لم يورد التفسير من عنده، ونسب ذلك إلى صاحبه. فعزا تفسير واحد من أمثاله إلى "بعض العرب"، وتفسير واحد آخر إلى أستاذه أبى عمرو. وأشار الميدانى إلى أنه فعل ذلك فى تفسير المثل القائل (أعطنى حظى من

---

(١) مجمع الأمثال ١ : ٥٨ ، ٢ : ١٩١ . فصل المقال ٢٥٦.

(٢) ابن دريد: الجمهرة ٣ : ٤٥٩ – ٦٠ . ابن السكيت: إصلاح المنطق ١٢٩، ٣٤٧، ٣٥٥. ابن قتيبة: أدب الكاتب ٣٨.

شواية الرضف)، إذ قال فى نهاية ما أورده عن يونس[1]: "هذا ما حكاه يونس عن أبى عمرو".

ونراه يوجه القسط الأكبر من عنايته إلى أصل المثل، فلا يغفل عنه أبدا، يليه فى الاستئثار بالعناية مضربه، فهو يختم حديثه عن كل مثل بالظرف الذى يمكن أن يقال فيه. ولكنه أغفل ذلك فى مثل المرأة مع ابنتى أخيها وأختها.

وعنى فى أمثال بتفسير الألفاظ الغريبة التى فيها، وأهمل ذلك فى أمثال أخرى. وتكاد الأمثلة التى أوردتها تكون كلها من النوع الثانى، مما يدل على كثرتها. وأمثل للنوع الأول بالمثال (بعد الهياط والمياط)، قال الميدانى عنه[2]: "قال يونس بن حبيب: الهياط: الصياح. والمياط: الدفع، أى بعد شدة وأذى".

وصفوة القول إن يونس بن حبيب عنى بالفئات المختلفة من الأمثال، وخاصة الاجتماعية؛ وأنه رجع إلى من أخذ عنهم اللغة فى تفسيرها؛ وأنه اهتم بأصل المثل ومضربه، فكشف عنهما كشفا طيبا.

ونستطيع أن نقول إن حديث يونس عن الأمثال احتفظ بقيمته حتى بعد أن ألف تلاميذه كتبا فى الأمثال، وأنه كان أحد العمد التى أقام عليها هؤلاء التلاميذ كتبهم. فاغترف منه المؤلفون المتأخرون مباشرة أو عن طريق تلاميذه. ولست أعنى بهذا الميدانى وحده، بل أعنى معه الزمخشرى. حقا إنه لم يذكر يونس غير مرة فى صدد تفسير المثل (لو كان درءا لم تئل) قال[3]: "عن يونس: يقال: ما بدابتى درء.

---

(١) مجمع الأمثال ١ : ٤٩٧.

(٢) مجمع الأمثال ١ : ١٠٨ . وانظر ١ : ١٥١ ، ٢ : ١٣٠ . فصل المقال ٩٨.

(٣) المستقصى فى أمثال العرب ٢ : ٢٩٨.

ولم تنل: لم تنج. أى لو كان الداء الذى بك درءا – كما زعمت – لم تسلم منه، إنما كان شيئا آخر. يضرب لمن يعظم الأمر الذى يشتكيه ويزيد فى وصفه". ويختلف هذا القول عما عند الميدانى، الذى قال[1]: "قال يونس: لو كان الأمر كما قلت لم تنج ولكنه دون ما قلت. الدرء: الدفع، وكل ما يحتاج إلى دفعه يسمى درءا، ومنه درء الأعادى أى شرهم. والوأل: النجاة. يضرب لمن يتهم فى قومه". والاختلاف فى نص العبارة الأولى لا معناها ويبدو أن أحدهما تصرف فى عبارة يونس.

ولكن الزمخشرى لم يأخذ من يونس تفسير هذا المثل وحده، بل أخذ تفسير بعض الأمثال الأخرى غير أنه لم يصرح بذلك. وإنما يتبين هذا عند مقارنة كلامه بكلام يونس عند الميدانى. قال الزمخشرى مثلا فى المثال[2] (أسائر اليوم وقد زال الظهر): "وقيل: أصله أن قوما أُغير عليهم فاستصرخوا بنى عمهم، فأبطئوا عليهم حتى أسروا وذُهب بهم، ثم جاءوا يسألون عنهم فقال المسئول ذلك" وقال فى المثال[3] (أضئ لى أقدح لك): "قيل : هو تهكم، إذا قال: أضئ لى، كيف يقول: أقدح لك". وقد مرت العبارتان بنا دون تغيير عن يونس.

كتاب معانى القرآن

يماثل هذا الكتاب سابقه فى عدم العثور على مقتبسات صرح أصحابها أنهم أخذوها منه. ولكنه يختلف عنه بعض الشئ. فقد رجحت فى الكتاب السابق أن

---

(١) مجمع الأمثال ٢ : ١٣٠.

(٢) المستقصى ١ : ١٥٣.

(٣) المستقصى ١ : ٢١٣.

بعض ما لدى من أقوال منقول عنه، بل كادت بعض القرائن تجزم بذلك. أما هذا الكتاب فلم أجد سبيلا إلى ذلك . حقا، عثرت على عدة أقوال ليونس تعالج جوانب مختلفة من الآيات القرآنية. ولكنها مجردة من كل قرينة تؤدى بنا إلى إثباتها فى كتاب معانى القرآن أو نفيها منه. وبالرغم من ذلك، لن أهمل هذه الأقوال، بل أقوم بدراستها هنا لأنها تلقى أضواء على الطريقة العامة لتناول يونس فى دراساته القرآنية.

وأبدأ بالأقوال المتعلقة بمعانى الآيات لقربها من موضوع الكتاب. نستطيع أن نتبين من بعض الأخبار التى بين يدى[1] أن يونس كان فى بعض الأحيان ينظر إلى جملة القرآن، ولايكتفى بالنظرة المحلية فى آية واحدة، فيدلى بالحكم الذى يعم الكلمة أنى جاءت. قال: "كل شئ فى القرآن (فأتبعه) أى طلبه، و (اتّبعه) يتلوه".

ونتبين من خبر آخر أنه اعتمد فى تفسيره للمفردات القرآنية على الشعر، حتى فى الأحوال التى كان الظن ألا يعتمد عليه فيها. قال الجرمى[2]: رأيت يونس النحوى – ومر بحلقة من حلاق المسجد – فقام إليه رجل فسأله عن قول الله جل ذكره: "وأنى لهم التناوش من مكان بعيد" فقال بيده: التناول. وأنشد:

وهى تنوش الحوض نوشا من علا نوشا به تقطع أجواز الفلا"

فالمكان الذى سئل فيه، والهيئة التى سئل عليها، يجعلانه فى حل من الاقتصار على المعنى المجرد، ولكنه أضاف متطوعا الشاهد الشعرى، الذى نجده فى غير الخبر السابق أيضا[3] .

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ٤٦. وانظر المزهر ١ : ٤٥٣.

(٢) السيرافى : أخبار النحويين ٥٧، وانظر الفاخر للمفضل بن سلمة ١٦٤.

(٣) ذيل الأمالى ١٨.

وتكشف بعض الأخبار الأخرى أن يونس انساق وراء معارفه النحوية، ووجه عناية خاصة إلى ما اتصل بها من أمور قرآنية، مثل الأدوات.

أورد الزركشي[1] في معاني (من) أنها تكون "بمعنى الباء نحو "ينظرون من طرف خفي" حكاه البغوي عن يونس". وأورد ابن الأنباري[2] في تفسير قوله تعالى: "ويكأنه لا يفلح الكافرون" عن يعقوب بن السكيت: "أنشدني هذا البيت:

ويك إن من يكن له نشب يحـ ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

محمد بن سلام الجمحي عن يونس وقال: معناه ألم تر".

واعتمد يونس على معارفه النحوية في تفسيراته، كما نرى فيما روى محمد ابن سلام عنه حين قال[3]: "سمعت يونس النحوي يقول في قوله جل وعلا: "فاليوم ننجيك ببدنك" ننجيك: نجعلك على نجوة من الأرض، وهي المكان المرتفع. ببدنك: بدرعك. وأنشد لأوس بن حجر:

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالـــراح

فمن بنجوته كمن بعقوتـــه والمستكن كمن يمشي بقرواح"

بل اعتمد على هذه المعارف النحوية في قراءته أيضا، وخاصة عندما يدعمها الشعر الفصيح. قال ابن سلام[4]: "قلت ليونس: كيف تقرأ "وجئتك من سبأ بنبأ يقين"؟ فقال: قال الجعدي، وهو أفصح العرب:

---

(١) البرهان ٤ : ٤٢٠.

(٢) شرح القصائد السبع الطوال ٣٥٩.

(٣) ذيل الأمالي والنوادر ١٨.

(٤) طبقات فحول الشعراء ١٠٦. ابن دريد : جمهرة اللغة ٣ : ٢٩٢.

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما

وهو على قراءة أبى عمرو ويونس".

وطبيعى أن يلتقط ما فى الآيات من مسائل نحوية ويناقشها، كما روى عنه سيبويه[1]: "وأما قوله عز وجل: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ فإنه يجىء على البدل أو كأنه قال: انطلقوا، فقيل له: من؟ فقال: بنو فلان. فقوله: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ على هذا فيما زعم يونس".

وغير بعيد أن يكون تناول بعض القراءات بالتعليل. قال سيبويه[2]: "سمعنا بعض العرب يقول: الحمد لله ربَّ العالمين، فسألت عنها يونس، فزعم أنها عربية". ويؤيد ذلك المكانة السامية التى كان يشغلها يونس فى علم القراءة، قال الجاحظ[3]: "لم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سيار ثم عثمان بن أسعد، ثم يونس النحوى، ثم المعلى".

ويبدو أن يونس لم يكن من الملتزمين بالتفسير المأثور بل كان يفسر برأيه أحيانا. فنحن لم نجده يورد أى سند فى أقواله السابقة، ونجد بعضها ذا صبغة نحوية تدل على صدورها من عنده. ولعل الخبر التالى يؤيد هذا الاستنباط. قال أبو عبيدة عن يونس[4]: "كنت مع أبى عمرو بن العلاء عند بيت الله الحرام. فجاءنا مقاتل ابن سليمان فجعل يسأل أبا عمرو بن العلاء عن تفسير القرآن فأكثر. ثم قال له: ما معنى قوله تعالى ﴿مثل الجنة التى وعد المتقون﴾ فقال أبو عمرو: لا أدرى. فقلت

---

(١) الكتاب ١ : ٢٣٦. وانظر ١ : ١٧٣ ، ٢٤٩ ، ومجاز القرآن ٢ : ٢١.

(٢) الكتاب ١ : ٢٤٨.

(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٦٨.

(٤) مجالس العلماء ٦٥.

له: أضجرت الشيخ من كثرة ما تسأل، أراد صفة الجنة التي وعد المتقون. فقال مقاتل لأبي عمرو: هو كما قال ؟ فقال: إن كان سمع فخذ عنه. فقال مقاتل: ما أفتيتني، سمعت[1]. فقال: لو لم أسمع من الثقات ما أفتيتك، أو كلام مثل نحوه".

وبين يدى خبر آخر يدل على أن يونس روى بعض تفسيره عن بعض المشهورين من المفسرين. روى محمد بن إسحاق[2] عن يونس عن الزهرى في قول الله عز وجل: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ معناه ما الذى علمناه شعر وما ينبغي له أن يبلغ عنا شعرا.

كتاب اللغات

عنى العرب في هذا الحقل العلمي بنوعين من التأليف: يقتصر الأول منهما على "اللغات في القرآن"، ويمد بصره إلى مايحتوى عليه الكتاب الكريم من ألفاظ مأخوذة من لهجات القبائل المتفرقة في شبه الجزيرة العربية، وقد يديم النظر في بعض هذه الألفاظ محاولا أن يتعرف أصولها البعيدة، ولو كانت خارج شبه الجزيرة. ويتسع النوع الثاني فلا يقيد نفسه بالمجال القرآني بل ينظر إلى اللهجات القبلية كلها، أو القبائل الفصيحة على أقل تقدير. وقلما يأبه هذا النوع بالتعمق إلى الأصول غير العربية.

فإذا كان كتاب يونس من النوع الأول لم يكن رائدا له. فقد سبقه إليه عبد الله بن عباس، وأكثر من الحديث فيه، حتى جمعت أقواله في رسالة صغيرة، غالبت الأزمان، ووجدت من يطبعها في عصرنا هذا. ولا نستطيع أن نتمسك بالعنوان

---

(١) يريد لم تفتني بل رويت ما سمعت.

(٢) السيرافي ٥٦.

فنقطع بأن كتاب يونس من النوع الثانى، لأن بعض الكتاب كانوا يختصرون عناوين الكتب التى يذكرونها، فربما كان العنوان الذى بين أيدينا مختصرا.

وإذا كان الكتاب من النوع الثانى حاز يونس شرف السبق إلى التأليف فيه، فهو أول لغوى ينسب إليه كتاب من هذا النوع. ولعلنا نجد بعض الاطمئنان إلى أن الكتاب من هذا النوع حين نرى ما بين أيدينا من أقوال ليونس قلما يتعرض للغات فى القرآن، بينما كثير منها يعالج اللغات القبلية. وقد تجلى لنا ذلك فيما فعل فى كتاب النوادر. وتجلى لنا أنه لم يقتصر على ظاهرة أو اثنتين من الظواهر اللغوية فى هذا الصدد، بل تنبه إلى ظواهر كثيرة ورصدها. وأضفت إلى ذلك أن الرجل رصد ظواهر غير التى تحدثت عنها إلا أننى لم أجد من القرائن ما يجعلنى أضعها فى النوادر.

كل هذا يمنحنا صورة ما عن هذا الكتاب، الذى لم أعثر على اقتباس واحد صريح منه، ولا أستطيع أن أميل فى أى قول عثرت عليه إلى أنه منه، لأن الرجل كان يهوى الحديث عن اللغات القبلية، ويبث هذا الحديث فى كتبه المختلفة.

الفصل الثاني

الكتب غير المعروفة

كان حديثي في الفصول السابقة عن الكتب التي نسبها القدماء إلى يونس بن حبيب. وقد حاولت – بالرغم من ضياعها – أن أؤلف لها صورة تجعلنا قادرين على التعرف عليها، وتمييز أهدافها واتجاهاتها وخصائصها، ومنحها مكانتها في زمنها، ولكن بقيت كلمة يجب أن تقال عن مؤلفات الرجل.

الموازنة بين الشعراء

قال بروكلمان في ترجمته ليونس بن حبيب[1]: "له موازنة بين قدامى الشعراء، ذكرها ياقوت في الارشاد ٧ : ٣١٠".

وقد فهمت من هذا الكلام أن يونس ألف كتابا في الموازنة بين الشعراء القدماء، وربما فعل ذلك قارئ بروكلمان. ولكننا حين نرجع إلى المصدر الذي استقى منه بروكلمان، أعني معجم الأدباء لياقوت[2]، نتبين أن هذا الفهم غير صحيح، إذ لم يصرح ياقوت بأن يونس ألف مثل هذا النوع من الكتب، ولا أومأ إلى ذلك . وإنما أورد ياقوت عدة أخبار تحكي أسئلة قدمت إلى يونس عن رأيه في بعض الشعراء الجاهليين والأمويين، والموازنة بينهم، وردوده عليها.

مثال ذلك ما رواه محمد بن سلام قال: "سألت يونس النحوي عن أشهر

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٢ : ١٣١ (الترجمة العربية).

(٢) ٢٠ : ٦٥.

الناس، فقال: لا أومى إلى رجل بعينه، ولكنى أقول: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة الذبيانى إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب".

القياس فى النحو

كذلك قال بروكلمان[1]: "وقيل: إنه صنف كتاب القياس فى النحو". ولكنه لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه فى هذا القول، ولم أعثر أنا على من أشار إلى ذلك. وأعتقد أن التأليف فى القياس فى عصر يونس غريب، وغير متوقع. فقد تنبه الناس إلى القياس، وأكثروا من التحدث عنه فى الجيل التالى ليونس، أى جيل تلاميذه، بعد ما وقع الخلاف بين العلماء من البصرة والكوفة، وأخذ الناس يحسون أن كلا من الفريقين يختلف عن الآخر فى منحاه ونهجه. ووصل الأمر إلى أن شارك الشعراء فى الحديث عن الأقيسة النحوية[2].

---

[1] تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠.

[2] نزهة الألباء ٥٤ –٥٥.